أسس التفسير العقلي للقرآن الكريم عند الشيخ ابن عاشور

إعـداد

الدكتور محمد عويس عبدالرحيم محمد

مدرس منتدب بقسم الدراسات الإسلامية بكلية الآداب بالوادي الجديد – جامعة أسيوط

المـقدمــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد – ρ –

وبعد ،،،

فـإنَّ دراسـة القرآن الكريم وتفسيره ، أشرف عمل يتعاطـاه الإنسـان ، باعتبـار أنَّ هذه الدراسة موضوعها: كلام الله تعالى ، وغرضها التوصل إلى ما أودعه الله في القرآن من معان وحكم . وقد فُسر لفظ (الحكمـة) الـواردة فـي قـول الله تعـالى:{**يُـؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**ۗ}[البقرة:269]. بأنها "تفسير القرآن "[1]

هناك اتجاهان لتفسير القرآن الكريم ، لا يخرج عنهما التفسير بحال من الأحوال:

(أ) التفسير بالنقل وهو ما يطلق عليه "التفسير بالمأثور".

(ب) تفسير بالعقل ويطلق عليه "التفسير بالمعقول أو بالرأي أو بالاجتهاد".

والواضح أنَّ هناك اتجاهاً آخر يمزج بين التفسير بـالمعقول والتفسير بـالمنقول ، وهو مـا عليه شيخنا ابن عاشور [2] وكثير من المفسرين ، ولـيس هنـاك تفسير خـاص لأى منهمـا ؛ وإنمـا هو طغيان اتجاه على الآخر.

إشكالية البحث :

من الأمور التي تؤدي إلى اتساع التفاسير الاجتهاد في فهم الـنص القرآنـي والبحث عن وجوه إعجازه . والشيخ ابن عاشور عالج في تفسيره مسائل الاجتهاد وإعمال الرأي وعدم التقيد بالمأثور فـي أغلـب قضـاياه التـي يمكن الاجتهـاد فيهـا، وذلك حينمـا لا يكـون هنـاك نـص مـأثور يحجب الاجتهاد .

لذا يطرح البحث سؤالاً نطمح في الإجابة عنه هو: ما الأسس التـي اعتمدها الشيخ ابـن عاشور وبنى عليها تفسيره العقلي للقرآن الكريم ؟ .

أسباب اختيار الموضوع :

لقد دفعني لاختيار الموضوع ما يلي :

1- إعجابي بشخصية الشيخ ابـن عاشـور العلميـة ، وآرائـه المتميـزة وفكره الاصـلاحي المعتدل المبني على الاجتهاد .

2- تقديم دراسة للأسس التي بنى عليها الشيخ ابن عاشور تفسيره العقلي للقرآن الكريم ؛ليستطيع القارئ المطالع لتفسيره أن يتفاعل مع قضاياه المطروحة .

---

(1) انظر : السيوطي / الإتقان في علوم القرآن / ج175/2-تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم- ط. المكتبة العصرية- بيروت-1408هـ - 1988م.

(2) انظر : عندما يذكر اسم الشيخ (ابن عاشور) يكون المعنى مصروفاً إلى الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور صاحب تفسير (التحرير والتنوير).

3- لفت انتباه الدارسين إلى ضرورة قراءة هذا التفسير الموسوعي ، وتقديم دراسات متخصصة تكشف عن الجوانب المضيئة فيه بالبحث والدراسة والتحليل كلٌ في مجاله وتخصصه .

أما عن المنهج المتبع في هذا البحث فهو المنهج الوصفي الاستقرائي التحليلي .

الإطار النظري :

يقع البحث في مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة على النحو التالي :

المقدمة : وعرضت فيها اشكالية البحث ، وأسباب اختياره ، ومنهجه ،وخطته .

التمهيد : وقدمت فيه موجزاً لحياة الشيخ ابن عاشور وأهم مصنفاته .

المبحث الأول : منهج الشيخ ابن عاشور في البحث والتفسير

وجاء في مطلبين هما :

المطلب الأول : منهجه في البحوث والدراسات الأدبية .

المطلب الثاني : تفسيره التحرير والتنوير ومنهجه فيه .

المبحث الثاني : أسس التفسير العقلي للقرآن الكريم عند الشيخ ابن عاشور

وجاء في سبعة أسس هي :

أولاً : عموم القرآن وشموله .

ثانياً : الاعتداد بالقديم وتهذيبه .

ثالثاً : إعمال النظر والفكر واستخدام المنهج العلمي .

رابعاً : التركيز على فن دقائق البلاغة وبيان وجوه الإعجاز.

خامساً : التوفيق بين القرآن والعلم الحديث والرد على المضللين .

سادساً : مواكبة التفسير لروح العصر .

سابعاً : التوسع في ذكر الفوائد .

الخاتمة : وضمنتها أهم نتائج البحث وتوصياته . ثم ذيلت البحث بثبت للمصادر والمراجع .

وفي النهاية أبتهل إلى الله تعالى أن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتي . إنه نعم المولى ونعم المصير .

التمـهـيـد :

حـياة الشيـخ ابن عـاشــور

أولاً : اسمه ونسبه :

هو الشيخ محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر ابن عاشور ، من بيت آل عاشور الأشراف الأندلسيين ، وجده للأب الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ، وولده ومستشاره الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور ، وكلهم تولى القضاء والإفتاء وإمامة أو عمادة الجامعة الزيتونية . وكلهم تميز بالمؤلفات القيمة ، والسيرة الزكية الطاهرة ، والإخلاص المفرد. وجَده لأمه هو العلامة الوزير الشيخ محمد العزيز بوعتور . شارك السابقين في جل ما أحرزوه ، وزاد بالمناصب القيادية في الحكومة والرئاسة ، ونسبه منته إلى عثمان بن عفان –رضى الله عنه- .[1]

ثانياً : مولده ، ونشأته ، وحياته :

ولد الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور "بتونس سنة 1296 هـ -1879م"[2]

(ومنذ ولادته أخذه جده للأم ،اسكنه معه بالقسم الخاص به).[3]

بدأ الشيخ بحفظ القرآن الكريم وعمره ست سنوات ، فحفظ الأجرومية وغيرها، وفي سنة 1310هـ التحق بجامع الزيتونة ، وألقى ختماً في الحديث [4] في مجلس العلماء بعد أربعة أعوام من التحاقه بالزيتونة . وقرن إلى عنايته بعلوم الأدب واللغة عنايته بتعلم الفرنسية.

وفي سنة 1317هـ تقدم لمناظرة إحراز شهادة التطويع ، وذلك بمقال يلقيه ودرس وأسئلة يطرحها عليه جماعة من العلماء ، يجلسون في مجلس واحد ، فأحرز الدرجة بتقدير فائق ، وحصل على الدرجة القصوى كاملة.

وفي سنة 1324هـ ارتقى بمناظرة إلى التدريس من الطبقة الأولى ؛ وكان يتولى التدريس في الصادقية [5] قبلها بثلاث سنوات . وهي ذات منهج مدني غربي.

وفى سنة 1325هـ عُين نائباً عن الدولة لدى نظارة جامع الزيتونة. فشرع في ممارسة إصلاح التعليم ، ووضع لائحة في ذلك ، أخذت بها لجنة إصلاح التعليم سنة 1329هـ.[6]

"وكان أول من سُمِى شيخ الجامع الأعظم وفروعه في سبتمبر 1932م . وكان أول من حاضر بالعربية بتونس في هذا القرن ، وألقى محاضرات عديدة على منبرى الجمعية الخلدونية

---

(1) راجع : الاستعارة التمثيلية في تفسير التحرير والتنوير / على محمد العطار رسالة دكتوراه مخطوطة بجامعة الأزهر / ص48، 49.

(2) انظر : الزركلي / الأعلام / ج6 / 174 / ط. الثامنة / دار العلم للملايين / (بيروت / 1989).

(3) انظر : الاستعارة التمثيلية / ص49/نقلاً عن مذكرة في التعريف بالشيخ كتبها ولده عبد الملك ص 1.

(4) (ختم الحديث) عبارة تطلق على العلماء الذين يحفظون أبواباً في الصحاح كالبخاري ومسلم ثم يشرحونها للناس في كتاب.

(5) مدرسة ثانوية أنشأها الصادق باى سنة 1875م، وهي أم رجال النهضة التونسية ، إذ أُنشئت لتجمع بين الثقافتين العربية والفرنسية معاً ، وشهادتها معادلة للبكالوريا.

(6) راجع : الاستعارة التمثيلية / ص49 ، 50.

، وجمعية قدماء الصادقية . وأول من أحرز جائزة الرئيس بورقيبة سنة 1968م،ارتحل إلى المشرق العربي وأوروبا واسطنبول، وشارك في مؤتمر المستشرقين المنعقد في اسطنبول خريف 1951م."[1]

أما عن المناصب التي تولاها الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ؛ فكثيرة ومتعددة ، حيث تولى نيابة الدولة في جامع الزيتونة ، وعضوية إصلاح التعليم ، وعضوية ترتيب الكتب الموقوفة على الصادقية ومكتبات الجامع الأعظم ، وتولى خطة القضاء سنة 1331هـ لمدة عشر سنوات ، ثم ترقى إلى خطة الإفتاء ، وعاد إلى التدريس. وفي سنة 1351هـ صدر الأمر الملكي بتلقيبه شيخ الإسلام المالكي ، وخصّه بالمالكي ؛لأنه لم يتول أحد من المالكية هذا المنصب ، حيث كان شيخ الإسلام حنفياً يُلقب بشيخ الإسلام بدون تخصيص ، وفي نفس هذا العام صدر الأمر الملكي بتعيينه رئيساً للنظر في شئون التعليم في جامع الزيتونة ، ويُلقب بـ (شيخ الجامع الأعظم) . وفي سنة 1374هـ /1956م اختير عميداً للجامعة الزيتونية.[2]

ثالثاً : صفاته وأخلاقه :

لقد عُرف الشيخ ابن عاشور بالذكاء الوقَّاد ، وسرعة الحفظ ، فتميز بين أقرانه ، لذلك عُنى به شيوخ الزيتونة ، يقول الأستاذ محمود شمّام : "إنَّه موهبة فذة ، له ذاكرة قوية نادرة تدل على سعة الاطلاع وتعمق في الدرس والبحث ، وله بديهة حاضرة عجيبة مع حدة ذهن وعمق في التفكير وغزارة في العلم وذلاقة في اللسان وحلاوة في التعبير ...وكانت بديهته العجيبة وسرعة خاطره وتمكنه من النص والمراجع تُمكنه من الجواب الحاضر الذي هو نعم الناصر على ما يُطرح عليه من الأسئلة وما يُلقى من توقفات ، وسَائِلُوه كلهم من جلة الشيوخ العلماء الفقهاء المبرزين الذين يقضون ليلهم في المراجعة والمطالعة وإعداد العدة للسماع ثم الاستفسار عمّا استعصى من التوقفات والمشاكل".[3]

وكان يمتاز الشيخ ابن عاشور – رحمه الله – بـ "متانة لغته وسلامة ألفاظه مع حسن اختيارها وانتقائها وسعة مادته في الموضوع الذي يتحدث عنه ، وكان طرازاً جديداً علينا يشدنا إليه فيهزنا بجديه إلقائه واستناده في استشهاداته إلى البليغ الفصيح من الشعر خاصة ما هو مثبت بديوان الحماسة ، وأحسب أنه كان يحفظه كله عن ظهر قلب.

كان يستمر – برد الله ثراه – في إلقاء درسه بدون انقطاع مدة تربو على الساعتين لا يرجع إلى ورقة ، ولا إلى كتاب في أسلوب عميق من الدرس والتحقيق ، يناقش المؤلفين والمفسرين والشّراح وأصحاب الآراء ، ويقرع حججهم بحجته ، ويردَ تخريجاتهم بأدلة يلقيها ، وينسج برودها ويصقلها صقلاً وينسبها إلى مراجعها وأصولها ومظانها ، وكأنه قد طالعها منذ لحظة من كتاب بين يديه"[4]

وكان يمتاز الشيخ ابن عاشور –أيضاً – باستقلال الشخصية ، فقد "كان يحرر مع

---

(1) انظر : الاستعارة التمثيلية / ص50 / نقلاً عن نشرة وزارة الثقافة بتونس / إعداد الحبيب شيبوب خاصة بالشيخ في وفاته ص 1 وما بعدها.

(2) راجع في ذلك : ابن عاشور / التحرير والتنوير / ج1 / 6 ، والاستعارة التمثيلية / ص50 ، 51 ، 52 ، والمآخذ البلاغية للشيخ الطاهر بن عاشور في علمى البيان والبديع في تفسير التحرير والتنوير / رسالة ماجستير مخطوطة بجامعة الأزهر / ص1 ،2.

(3) انظر : محمود شمّام / أعلام من الزيتونة / 128 / ط. تونس 1417هـ 1996م.

(4) انظر : محمود شمّام / أعلام من الزيتونة / 128.

الشيخ الخضر حسين مجلة بخط يده"[1] ، ومما يدل على استقلال شخصيته أنه "كان معتداً بنفسه في إبداء الرأي واقتناص الحلّ للمشاكل الطارئة والقضايا النّازلة"[2]

ومن أبرز صفات الشيخ ابن عاشور الجرأة ، فقد كان – رحمه الله-:"جريئاً ينقد آراء السابقين ، ويؤاخذ المفسرين وشرّاح الحديث ، وينعتهم أحياناً بالتقصير والقصور وحتى الإهمال ، وتجاوز الحوادث ، والقصور عن إدراك كنه الحقائق."[3] ومما يدل على جرأته أنه "لا يركن إلى المراوغة والمغالطة والاسترواح والتهرب ، بل يصدع بالقول ، ويجهر بالرأي ، ويأخذ المخالف ولا يستحى من كشف عيوبه ونقائصه وإبداء هفواته وغلطاته."[4]

خامساً : آثاره ومصنفاته :

للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور مؤلفات مطبوعة من أشهرها :

1- تفسيره للقرآن الكريم المسمى "التحرير والتنوير" الذي ألفه في ثلاثين جزءاً، ويعتبر مرجعاً في الفكر العقلاني لفهم النص القرآني ، ويعتبر -أيضاً- هذا الكتاب دليلاً على ما يتمتع به الشيخ من سعة أفق وغزارة معارف في الحضارة والعلوم والتاريخ.

2- كتاب "أليس الصبح بقريب" ، ألفه في مدة ثلاث سنوات ، وكان عمره لا يتجاوز خمساً وعشرين سنة ، ولم يتم نشره إلا عام 1967 ، ويعتبر هذا الكتاب وثيقة تنبئ عن فكر إصلاحي رائد في مجال التعليم ، فيجعل من اكتساب العلم ، واستنهاض العقل ، والتفكير السليم مرتكزات التطوّر والتقدّم.

3- كتاب " مقاصد الشريعة الإسلامية" مطبوع .

4- كتاب " أصول النظام الاجتماعي في الإسلام" مطبوع .

5- كتاب " أصول الإنشاء في الخطابة". مطبوع .

6- موجز البلاغة. مطبوع .

7- نشر وتحقيق ديوان بشّار بن برد (أربعة أجزاء). مطبوع .

8- كتاب " النظر الفسيح عن مضايق الأنظار في الجامع الصحيح ". مطبوع .

9- الوقف وآثاره في الإسلام.....وغيرها

المبحث الأول

منهج الشيخ ابن عاشور في البحث والتفسير

قال الدكتور على الشابي :"إنَّ حب البيان ورِقَّة الذوق هما مدخل ابن عاشور إلى التألق في المجالين الأدبى والديني ، وقد قضى على القطيعة التي روجها بعضهم بين الآداب والعلوم الدينية على اعتبار أنّ الأدب لا غناء فيه ، وأنه مضيعة الوقت حتى قال قائلهم مؤنباً ولده حين اتجه إلى قراءة الشعر:

---

(1) انظر : الاستعارة التمثيلية / ص49.
(2) انظر : محمود شمّام / أعلام من الزيتونة / 240.
(3) انظر : أعلام من الزيتونة / ص240.
(4) انظر : أعلام من الزيتونة - ص241.

إنَّ الزمان الذي تفنيه في الأدب ∴ يراه أهل النهى من جملة اللعب[1]

ومن ثَمَّ رأينا الشيخ ابن عاشور يتفوق في البحوث والدراسات الأدبية تفوقاً يضاهى تفوقه في العلوم الشرعية ، وكانت له دراسات تتسم بالجدية ، وتشيع فيها روح الموضوعية . لذا سوف أعرض فيما يلي لأبرز ملامح منهجه في البحث من جانب ، ومنهجه في التفسير من جانب آخر.

المطلب الأول: منهجه في البحوث والدراسات الأدبية :

لقد كان للشيخ في دراساته الأدبية واللغوية منهجٌ متميزٌ ؛ يتسم بالتدقيق والتحقيق ؛ فهو يعتد بالنقل الصحيح عن القدماء لدرجة أنه يقرر ذلك قائلاً :"وتقليد القدماء سنة فطرية".[2]

فهو ينقل عن الجاحظ ، والأخفش ، والزجاج ، والفراء ، وأبى على الفارسي ، والمبرد ، وابن مالك ، وسيبويه ، وابن هشام .. وغيرهم من اللغويين والأدباء وهو على ذلك –أيضاً– يرفض النقل بغير داع ، ولغير شاهد سوى "قال فلان وقال فلان".[3]

وكان الشيخ يهتم في دراساته بانتقاد القدماء والمحدثين في الاعتداد بما لا يصح الاعتداد به ؛ كأن يقول الشارح رأيت وأنا بين اليقظة والمنام ، وقول الشيرازي ألهمت ... مما لا يقبل في التحقيق العلمى .. ومما يدل على دقة وروعة منهجه قوله عند نفيه صحة إثبات هذا البيت :

فملكت أعلاها وأسفلها معاً ∴ وأخذتها كرهاً وقلت لها اقعدي

"وفي نسبة هذا البيت إلى النابغة ، وَهْم منشؤه ما في كتاب معاهد التنصيص للعباسي ص 46 (طبعة دار الطباعة المصرية 1274هـ)، في ترجمة أبى نواس قال : حدث أبو نواس قال : رأيت النابغة في النوم فقلت له : بم حبسك النعمان؟ قال : ببيت قلته ستره النعمان عن الناس. قلت : أبقولك: سقط النصيف..البيت؟ قال :أو هذا مستور ؟ قلت : أبقولك : فإذا لمست لمست ...البيت ؟ قال : اللهم غفراً . قلت : فبماذا ؟ قال : بقولى : فملكت أعلاها... البيت، فتحدثت بهذا ليزيد فألحق البيت بقصيدة النابغة.أ.هـ .

فهذا بناء الفاسد على الفاسد ، وما كان لليزيد أن يثبت شعراً لأحد رواه آخر في نومه بقوله ، فتلك أضغاث أحلام ، وإنما يحقق ذلك من قول الرائي لا من كلام المرئي ، على ما فى هذا البيت من اختلال ملاءمته لمن ادعى أن القصيدة قيلت في المتجردة ، فإنها مَلَكَة ، فكيف يقول ؟:

وأخذتها كرهاً ، وقلت لها اقعدي [4]

و- كذلك- اتبع الشيخ بعض مناهج الأقدمين ، وخاصة في المسائل البلاغية ، مثل الإمام عبد القاهر الجرجاني ؛ والجاحظ ، و السكاكي ، .. وغيرهم . و- أيضاً- كان الشيخ ابن عاشور

---

(1) انظر : العلامة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وإسهامه في تجديد الفكر الديني "سلسلة آفاق إسلامية" رقم (9) / ص23 / عن وزارة الشئون الدينية بتونس.
(2) انظر : الشيخ ابن عاشور / أليس الصبح بقريب / ص173-ط.المصرف التونسى-تونس-1967م.
(3) انظر : الاستعارة التمثيلية / ص53.
(4) انظر : الاستعارة التمثيلية / ص54 / نقلاً عن ديوان النابغة شرح وتحقيق الشيخ الطاهر / ص31.

لا ينساق وراء السابقين الأولين انسياقاً تاماً ، لكنه يخالفهم في بعض آرائهم ، ويصدع برأيه الخاص في كثير من المسائل اللغوية والبلاغية والأدبية .

المطلب الثاني: تفسيره التحرير والتنوير ومنهجه فيه :

يعد تفسير التحرير والتنوير أهم مؤلفات الطاهر ابن عاشور - على الإطلاق - ويُعد من أفضل التفسيرات التي قُدِمت للقرآن الكريم في العصر الحديث ، واسمه "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد ، من تفسير الكتاب المجيد" واختُصِر هذا الاسم بـ "التحرير والتنوير من التفسير" ، وهو يقع في ثلاثين جزءاً يتضمنها خمسة عشر مجلداً . وقد "كانت مدة تأليفه تسعاً وثلاثين سنة وستة أشهر."[1]

أولاً : تاريخ وظروف تأليف التفسير :

لقد تعددت وجوه النشاط العلمي للإمام محمد الطاهر ابن عاشور ما بين أدبية وبلاغية وتحقيق بعض الآثار ، وهذا بجانب أعماله الإدارية[2]الكثيرة التي كان يقوم بها.

وتفسير الطاهر بن عاشور للقرآن الكريم يُعد موسوعة علمية عظيمة ، أخذت منه الجهد الوفير والوقت الكبير حيث :"مكث ثلاثين عاماً[3] في تأليف التحرير والتنوير بأجزائه الثلاثين ، بمعنى أنه كان يخرج جزءاً كل عام ، وهو صنيع مرتب وفق خطة مرسومة حيث لم ينقطع انقطاعاً تاماً للتفسير في حقبة قد تقصر أو تطول . ولكنه جعل يتنقل في أفانين التأليف من كتاب إلى كتاب ، فهو يفسر آية ثم يشرح قصيدة ؛ ثم يحقق فصلاً من مخطوط ، وفي هذا استرواح من التعب لأن العمل المتحد يضفى من السآمة والملال ما يعوق صاحبه عن الاسترسال ،فإذا انتقل من فن إلى فن ، شعر بالنشاط المتجدد ، وأمده ذلك بقوة قادرة ..."[4]

وقد تحدث الشيخ محمد الطاهر عن ظروف تأليفه لهذا السفر العظيم في التفسير قائلاً :"أما بعد فقد كان أكبر أمنيتي منذ أمد بعيد ، تفسير الكتاب المجيد ، الجامع لمصالح الدنيا والدين ، وموثق شديد العرى من الحق المتين ، والحاوي لكليات العلوم أو معاقد استنباطها ، والآخذ قوس البلاغة من محل نياطها ، طمعاً في بيان نكت من العلم وكليات من التشريع ، وتفاصيل من مكارم الأخلاق كان يلوح أنموذج من جميعها في خلال تدبره ، أو مطالعة كلام مفسره ، ولكنى كنت على كلفي بذلك أتجهم التفحُّم على هذا المجال وأحجم عن الزج بسية قوسى في هذا النضال . اتقاء ما عسى أنْ يُعرّض المرء نفسه من متاعب تنوء بالقوة ، أو فلتات سهام الفهم وإن بلغ ساعد الذهن كمال الفتوة . فبقيت أسوِّف النفس مرة ، ومرة أسومها زجراً ، فإن رأيت منها تصميماً أحلتها على فرصة أخرى ، وأنا آمل أنْ يُمنح من التيسير ، ما يشجّع

---

(1) انظر : التحرير والتنوير / ج30 / 636.

(2) حيث كان الإمام رئيساً للمفتيين المالكيين بتونس ، وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس، كما عُين عام 1932م شيخاً للإسلام مالكياً . وهو من أعضاء المَجمَعَين العربيين في دمشق والقاهرة". انظر : الزركلي / الأعلام / ج6 / 174.

(3) ورد في خاتمة التفسير أنه أتم هذا التفسير في "عصر يوم الجمعة الثاني عشر من رجب عام ثمانين وثلاثمائة وألف . وكانت مدة تأليفه تسعاً وثلاثين سنة وستة أشهر" والأرجح عندي كلام الطاهر نفسه ، وضخامة التفسير هي التي جعلت الكُتَّاب يظنون أن الشيخ أخرج في كل سنة جزءاً.

(4) انظر : د. محمد رجب البيومي / مجلة الأزهر / عدد رجب 1421هـ أكتوبر2000م/ ج7 / 1037.

على قصد هذا الغرض العسير. وفيما أنا بين إقدام وإحجام ؛ أتخيل هذا الحقل مَرَّة الوتاد وأخرى الثُّمام. إذا أنا بأملي قد خُيل إليّ أنه تباعد وانقضى ، إذا قد قدر أنْ تسند إليّ خطة القضا. فبقيت متلهفاً ولات حين مناص ، وأضمرت تحقيق هاته الأمنية متى أجمل الله الخلاص ، وكنت أحادث بذلك الأصحاب والإخوان ، وأضرب المثل بأبي الوليد ابن رشد في كتابه البين ، ولم أزل كلما مضت مدة يزداد التمني وأرجو إنجازه ، إلى أنْ أوشك أنْ تمضى عليه مدة الحيازة ، فإذا الله قد منَّ بالنقلة إلى خطة الفتيا ، وأصبحت الهمة مصروفة إلى ما تنصرف إليه الهمم العليا ، فتحول إلى الرجاء ذلك اليأس ، وطمعت أنْ أكون ممن أوتى الحكمة فهو يقض بها ويعلمها . هنالك عقدت العزم على تحقيق ما كنت أضمرته ، واستعنت بالله تعالى واستخرته ؛وعلمت أنَّ ما يهول من توقع كلل أو غلط ، لا يحول بيني وبين نسج هذا النمط ، إذا بذلت الوسع من الاجتهاد ، وتوخيت طرق الصواب والسداد .. أقدمت على هذا المهم إقدام الشجاع على وادى السِّباع ؛ متوسطا في معترك أنظار الناظرين ، وزائراً بين ضباح الزائرين.."[1]

ثانياً : هدف الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور من تفسيره للقرآن الكريم :

القرآن الكريم كتاب الله الخالد ، تصدى له العلماء والمفسرون وكان لكل منهم هدف يسعى لتحقيقه ؛ فمنهم من عُنى بلغته ، ومنهم مَنْ عُنى ببلاغته وأسلوبه ، ومنهم مَنْ عُنى بأحكامه ، لذا تعددت التفاسير.

"فالقرآن كله خير من جهة بلاغة ألفاظه وحسنها وسرعة حفظه وسهولة تلاوته ، وهو -أيضاً- خير لما اشتمل عليه من أفنان الكلام والحكمة والشريعة واللطائف البلاغية ، وهو في ذلك كله آية على صدق الذي جاء به لأن البشر عجزوا عن الإتيان بمثله وتحداهم النبي ρ بذلك فما استطاعوا . وبذلك اهتدت به أمم كثيرة في جميع الأزمان ، وانتفع به من آمنوا به وفريق ممن حرموا الإيمان."[2]

وقد صرَّح الشيخ بهدفه من تفسير القرآن الكريم قائلاً :"فجعلت حقاً عليّ أنْ أبدى في تفسير القرآن نكتاً لم أر من سبقني إليها ، وأن أقف موقف الحكم بين طوائف المفسرين تارة لها ، وآونة عليها ، فإنَّ الاقتصار على الحديث المعاد تعطيل لفيض القرآن الذي ماله من نفاد.

ولقد رأيت الناس حول كلام الأقدمين رجلين: رجل معتكف فيما شاده الأقدمون ، وآخر أخذ بمعوله في هدم ما مضت عليه القرون، وفي كلتا الحالتين ضر كثير ، وهناك حالة أخرى ينجبر بها الجناح الكسير ، وهي أنْ نعمد إلى ما أشاده الأقدمون فنهذبه ونزيده ، وحاشا أنْ ننقصه أو نبيده ، عالماً بأنَّ غمض فضلهم كفران للنعمة ؛ وجحد مزايا سلفها ليس من حميد خصال الأمة فالحمد لله الذي صدق الأمل ، ويسّر إلى هذا الخير ودلّ.

والتفاسير وإن كانت كثيرة فإنك لا تجد الكثير منها إلا عالة على كلام سابق بحيث لاحظَّ لمؤلفه إلا الجمع على تفاوت بين اختصار وتطويل...

وقد ميزت ما يفتح الله لي من فهم في معانى كتابه وأجلبه من المسائل العلمية ، مما لا

---

(1) انظر : التحرير والتنوير / ج1 / التمهيد 5 ، 6 ، 7.
(2) انظر : التحرير والتنوير / ج17 / 90 ،91.

يذكره المفسرون ، وإنما حسبي في ذلك عدم عثوري عليه فيما بين يدى من التفاسير في تلك الآية خاصة ، ولست ادّعِى انفرادي في نفس الأمر ، فكم من كلام تنشئه تجدك قد سبقك إليه متكلم ، وكم من فهم تستظهره وقد تقدّمك إليه متفهِّم...

ولكن فناً من فنون القرآن الكريم لا تخلو عن دقائقه ونكته آية من آيات القرآن ، وهو فن دقائق البلاغة وهو الذي لم يخصه أحد من المفسرين بكتاب ، كما خصوا الأفانين الأخرى ، ومن أجل ذلك التزمت أنْ لا أغفل التنبيه على ما يلوح لي من هذا الفن العظيم في آية من آى القرآن كلما ألهمته بحسب مبلغ الفهم وطاقة التدبر

وقد اهتممت في تفسيري هذا ببيان وجوه الإعجاز ونكت البلاغة العربية وأساليب الاستعمال ، واهتممت -أيضاً- ببيان تناسب اتصال الآى بعضها ببعض ، وهو منزع جليل قد عُنى به فخر الدين الرازي، وألف فيه برهان الدين البقاعي كتابه المسمى "نظم الدرر في تناسب الآى والسور" إلا أنهما لم يأتيا في كثير من الآي بما فيه مقنع ، فلم تزل أنظار المتأملين لفصل القول تتطلع ، أما البحث عن تناسب مواقع السور بعضها إثر بعض ؛ فلا أراه حقاً على المفسِّر .

ولم أغادر سورة إلا بينت ما أحيط به من أغراضها لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصوراً على بيان مفرداته ومعانى جمله كأنها فِقَر متفرقة تصرفه عن روعة انسجامه وتحجب عنه روائع جماله.

واهتممت بتبيين معانى المفردات في اللغة العربية بضبط وتحقيق مما خلت عن ضبط كثير منه قواميس اللغة ... وقد بذلت الجهد في الكشف عن نكت من معانى القرآن وإعجازه خلت عنها التفاسير ، ومن أساليب الاستعمال الفصيح ما تصبو إليه همم النحارير."[1]

مما سبق يظهر لنا أنَّ هدف الطاهر بن عاشور من تفسيره يمكن تلخيصه فيما يلي:

1- تحقيق أكبر أمنية من أمنياته بوضع تفسير خاص به لكتاب الله.

2- بيان نكات من العلم وكليات التشريع.

3- بيان تفاصيل من مكارم الأخلاق لم تذكر قبله.

4- وضع تفسير يعنى بنكات البلاغة ودقائقها حيث رأى الشيخ أن أحداً لم يخصها بتفسير خاص كما خصوا الفنون الأخرى.

5- وضع خواطره الخاصة التي لم يُسبق إليها في تفسيره لآيات القرآن الكريم.

6- اتخاذ موقف عادل في الحكم على تراث السابقين وإتمام ما نقص دون هضم حقوق أحد ممن سبقوه.

7- رغبة الشيخ في خدمة القرآن الكريم والمشاركة قدر المستطاع في الحركة العلمية الدائرة حوله.

(1) انظر : التحرير والتنوير / ج1 / التمهيد ص 7 ،8

إذا استعرضنا المنهج الذي سار عليه الشيخ ابن عاشور في التفسير ، اتضح لنا – بلا شك – أنَّ الشيخ قد تبحّر في التفسير وعلومه ، واستوعب تفاسير السابقين الأولين ، هذا بجانب تعمقه في علوم اللغة العربية وبلاغتها ، وإحاطته التامة بجميع الأدوات التي يجب على المفسر التمكن منها قبل الخوض في تفسير الكتاب المجيد ، ويبدو لنا -أيضاً- نجاح ابن عاشور وتوفيقه في تحقيق الأهداف التي يرمى إليها من خلال تفسيره للقرآن الكريم.

ومهما يكن من أمر فإنّ تفسيره كنز ثمين في مجاله ، عظيم في نفعه ، دقيق في تتبعه للقضايا اللغوية ، والكلامية ، والفقهية المستمدة من آيات القرآن الكريم.

أما عن أبرز ملامح منهجه في التفسير – كما يتضح لنا- فهى كالتالي :

1- الجمع في تفسيره بين التفسير بالمأثور والتفسير بالمعقول فهو يفسر القرآن بالقرآن [1] ،والقرآن بالسنة [2] ، وبأقوال الصحابة والتابعين[3] ،ولا يتحرج من الاجتهاد برأيه في المسائل التي يتعرض لها.

2- النقل عن أصحاب التفاسير الأخرى السابقة عليه ، وتهذيب ما جاء فيها - إن تطلّب الأمر ذلك - ، ويقف أحيانا موقف الحكم بين طوائف المفسرين ، وهو لا ينقل آراءهم فقط ، وإنما يناقشها ويحللها ، ويخالف بعضها إذا لم يطمئن إليها.

3- التركيز على فن دقائق البلاغة العربية وبيان إعجاز القرآن في نظمه ، وأسلوبه ، ومبتكراته ، وعاداته ، وكان هذا العمل هدفاً سعى إلى تحقيقه في جميع آى القرآن الكريم فلم يترك موضعاً بلاغياً إلا وأشار إليه وناقشه وحلله ، فجاء تفسيره فريداً في هذا الباب.

4- بيان تناسب واتصال الآيات بعضها ببعض ، وذكر أغراض السور .

5- بيان وجوه الإعجاز القرآني.

6- الاهتمام بذكر نصوص و استشهادات ؛ تتعلق باليهود والنصارى ، من التوراة[1] والإنجيل[2] .

7- العناية بذكر مقاصد الشريعة[3] .

8- الاهتمام بذكر الأحداث التاريخية ، وتفنيدها معتمداً على النقل والاقتباس من كتب السير ، وذلك في نسبة القبائل إلى أصلها أو التدليل على الحوادث المختلفة[4].

9- الاهتمام بذكر المسائل الفلسفية ومناقشتها ، وهو يربط ذلك بموضوعات التفسير ربطاً جيدا ليس فيه تكلف[5] .

10- الاهتمام بذكر مسائل الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ؛ فيذكر المعطيات الكونية ويبين أوجه الإعجاز فيها ، ويناقش ويفند النظريات العلمية الحديثة ويبطلها -أحياناً- كما فعل مع

(1) من أمثلة تفسير القرآن بالقرآن ، انظر التحرير والتنوير / ج1 / 287 ، ج3 / 215 ، ج4 / 7 ، 44 ، 64.
(2) من أمثلة تفسير القرآن بالسنة ، انظر : التحرير والتنوير / ج3 / 88.
(3) من أمثلة تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين ، انظر : التحرير والتنوير / ج1 / 432 ، ج3 / 87 ، ج4 / 14 ، ج16-50 ، 143 ، ج18-235، ج20 / 111 ، ج21 / 137 ، 138 ، 304 ، ج30-420.

نظرية تسلسل أنواع الحيوان[6] .

11- التوسع في ذكر الفوائد ، فأحياناً يسترسل ابن عاشور في موضوعات جانبية ، لها علاقة بالآية التي يفسرها ، نحو حديثه عن أسماء آدم [7] ، مرض البرص[8] ، والبروج[9] ، العسل وفوائده[10] ،وغيرها .

المبحث الثاني :
أسس التفسير العقلي للقرآن الكريم عند الشيخ ابن عاشور

لقد كان للتفسير العقلي مكانة خاصة في فكر الشيخ ابن عاشور ، فهو يؤمن بأن الاجتهاد في فهم النص القرآني والبحث عن وجوه إعجازه يؤدي إلى اتساع التفاسير ؛ ومن ثَمَّ يتحقق قول العلماء :"إنَّ القرآن لا تنقضى عجائبه" ، لهذا رأيناه في تفسيره "التحرير والتنوير" يعالج مسائل الاجتهاد وإعمال الرأى وعدم التقييد بالمأثور في أغلب قضاياه التي يمكن الاجتهاد فيها ، وذلك حينما لا يكون هناك نص مأثور يحجب الاجتهاد.

لذا رأيت أنْ أقدم – في هذا المبحث- تصوراً عاماً للأسس التي بنى عليها الشيخ ابن عاشور تفسيره للقرآن الكريم ، محاولاً بهذا رسم صورة لفكر الشيخ وبسطها بين يدى القارئ ؛ ليستطيع – بمعاونتها- فهم حدود التفسير العقلى عند الشيخ ، والوقوف على أبرز ملامح شخصيته العلمية كفقيه ومفسر ، ومصلح اجتماعى ، وهي تقع في سبعة أسس:

أولاً : عموم القرآن وشموله :

لقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم هادياً للمسلمين ، مرشداً البشرية كلها لما فيه خيرهم وصالحهم في الدنيا والآخرة ، فالقرآن عامٌ لجميع الخلق منذ نزوله وحتى قيام الساعة ، فيه أحكام ومواعظ ، فيه قصص وأخبار الأمم السالفة ، فيه تهديد ووعيد ، فيه ترغيب وترهيب ، فيه ذكر لنعم الله التي لا تُعد ولا تحصى[11]. فالقرآن دستور للبشر جميعاً .

ويرى الشيخ أنَّ للقرآن ميزة فريدة عن سائر الكتب السماوية الأخرى؛ وذلك في عمومه وشموله لجميع جوانب الحياة والآخرة على السواء ، قال الشيخ :"القرآن هو جامع أصول الأحكام ، وأنه الحجة على جميع المسلمين ، إذ قد بُلِّغ لجميعهم ولا يسعهم جهل بما فيه. فلو أنَّ

---

(1) من أمثلة نقله عن التوراة ، انظر : التحرير والتنوير / ج1 / 429، 509 ، ج2 / 9 ، 488 ، ج4 / 9 ، ج6 / 274 ، 276 ، 281.
(2) من أمثلة نقله عن الإنجيل ، انظر التحرير والتنوير / ج6 / 14 ، 59 ، 156.
(3) من أمثلة ذلك : انظر : التحرير والتنوير / ج3 / 114 ، 135 ، 158.
(4) مثال ذلك : انظر : التحرير والتنوير / ج2 / 82 ، ج3 / 145 ، 146،ج16-130.
(5) مثال ذلك : انظر : التحرير والتنوير / ج2 / 159 ، ج3 / 225 ، 226 ،227.
(6) راجع : التحرير والتنوير / ج2-83 ، ج3 / 19 ، 24 ، 229،ج13-84.
(7) انظر : التحرير والتنوير / ج1 / 408.
(8) انظر : التحرير والتنوير / ج3 / 251.
(9) انظر : التحرير والتنوير / ج14 / 28 : 34.
(10) انظر : التحرير والتنوير / ج14 / 209.
(11) (قال ابن عاشور :"إن الغرض الأكبر للقرآن هو إصلاح الأمة بأسرها.." انظر التحرير والتنوير/ ج81/1).

المسلمين لم تكن عندهم أثارة من علم غير القرآن لكفاهم في إقامة الدين ، لأن كلياته وأوامره المفصلة ظاهرة الدلالة ، ومجملاته تبعث المسلمين على تعرُّف بيانها من استقراء أعمال الرسول وسلف الأمة ، المتلقِّين عنه ، لذلك لمّا اختلف الأصحاب في شأن كتابة النبى لهم كتاباً في مرضه قال عمر : حسْبُنا كتاب الله فلو أنَّ أحداً قصر نفسه على علم القرآن فوجد "أَقِيمُوا الصَّلاَةَ – وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ – كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ – وَأَتِمُّوا الحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ " لتطلّب بيان ذلك مما تقرّر من عمل سلف الأمة ، وأيضاً ففي القرآن تعليم طرق الاستدلال الشرعية كقوله :"لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ "[1]

نخلص من النص السابق إلى أنّ الطاهر ابن عاشور كان يؤمن بعموم النص القرآنى وشموله ، ومن ثَمَّ كان لذلك أثرٌ في تفسيره للقرآن الكريم على هذا النحو ، مما يحقق - في رأيه ورأى أستاذه الإمام محمد عبده سعادة الناس في الدنيا والآخرة. ويُعبر عن ذلك بقوله :"إن القرآن أنزله الله سبحانه وتعالى كتاباً لصلاح أمر الناس كافة رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم ، قال الله تعالى: { **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ** } [النحل:89] فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية ، والجماعية ، والعمرانية"[2]

ولم يكتف ابن عاشور بذلك بل جعل لزاماً على المفسر للقرآن الكريم أنْ يعلم "المقاصد الأصلية التي جاء القرآن لتبيانها"[1] ويهدف من وراء ذلك إلى تحقيق عموم النص القرآنى وشموله للوصول إلى مراد الله تعالى.

والمقاصد التي جاء القرآن لتبيانها – في رأى ابن عاشور- ثمانية أمور نلخصها فيما يلي :[2]

<u>الأول</u> : إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح ، وهذا أعظم سبب لإصلاح الخلق ، لأنه يزيل عن النفس عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدليل ، ويُطهر القلب من الأوهام الناشئة عن الإشراك والدهرية وما بينهما ، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى: { **فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوَهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ** } [هود:101] فأسند لآلهتهم زيادة تتبيبهم ، وليس هو من فعل الآلهة ولكنه من آثار الاعتقاد بالآلهة.

<u>الثانى</u> : تهذيب الأخلاق ، قال تعالى:{ **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** } [القلم:4] وفسرت عائشة – رضى الله عنها- لما سئلت عن خُلقه ρ - فقالت :"كان خلقه القرآن"[3] وفي الحديث الذي رواه مالك في الموطأ بلاغاً أنَّ رسول الله ρ - قال:"بعثت لأتمم مكارم حسن الأخلاق"[4] وهذا المقصد قد فهمه عامة العرب. <u>الثالث</u> : التشريع وهو الأحكام خاصة وعامة ، قال تعالى: { **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ**} [النساء:105] ، ولقد جمع القرآن جميع الأحكام جمعاً كلياً في الغالب ، وجزئياً في المهم . قال الشاطبي: لأنه على اختصاره جامع والشريعة تمت بتمامه.

<u>الرابع</u> : سياسة الأمة وهو باب عظيم في القرآن القصد منه حفظ الأمة وصلاح نظامها كالإرشاد إلى تكوين الجماعة بقوله {**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ**

(1) انظر : التحرير والتنوير / ج6 / 104 ، 105.
(2) انظر : التحرير والتنوير / ج1 / 38.

إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِنْهَا ... } [آل عمران:103].

الخامس : القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسى بصالح أحوالهم قال تعالى: {**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ**} [يوسف:3] وللتحذير من مساويهم قال {**وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ**}[إبراهيم:45].

السادس : التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين ، وما يؤهلهم إلى تلقى الشريعة ونشرها وذلك علم الشرائع وعلم الأخبار وكان ذلك مبلغ علم مخالطى العرب من أهل الكتاب . وقد زاد القرآن على ذلك تعليم حكمة ميزان العقول وصحة الاستدلال في أفانين مجادلاته للضالين وفي دعوته إلى النظر ، ثم نوَّه بشأن الحكمة فقال {**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً**} [البقرة:269] ، وهذا أوسع باب انبجست منه عيون المعارف ، وانفتحت به عيون الأميين إلى العلم . وقد لحق به التنبيه المتكرر على فائدة العلم.

السابع : المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير ، وهذا يجمع جميع آيات الوعد والوعيد ، وكذلك المحاجة والمجادلة للمعاندين ، وهذا باب الترغيب والترهيب.

الثامن : الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول ؛ إذ التصديق يتوقف على دلالة المعجزة بعد التحدى ، والقرآن جمع كونه معجزة بلفظه ومتحدى لأجله بمعناه والتحدى وقع فيه{**قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ من مِثْلِهِ**} [يونس:38].

وهكذا نجد أنّ نظرة ابن عاشور للقرآن الكريم تتسم بالعموم والشمول وبأنه صالح لكل زمان ومكان ، ومن ثمَّ جاء تفسيره مؤكداً لهذه الفكرة . ولذلك رفض الشيخ ابن عاشور التوسع في ذكر أسباب النزول في كل آية ؛لأن ذلك يوهم الناس أنَّ القرآن نزل لأجل حوادث تدعو إليها آياته ، قال الشيخ في هذا الشأن :"ولكنى لا أعذر أساطين المفسرين الذين تلقفوا الروايات الضعيفة فأثبتوها في كتبهم ولم ينبهوا على مراتبها قوةً وضعفاً ، حتى أوهموا كثيراً من الناس أنَّ القرآن لا تنزل آياته إلا لأجل حوادث تدعو إليها ، وبئس هذا الوهم فإنّ القرآن جاء هادياً إلى ما به صلاح الأمة في أصناف الصلاح فلا يتوقف نزوله على حدوث الحوادث الداعية إلى تشريع الأحكام."[5]

ثانياً : الاعتداد بالقديم وتهذيبه :

نعلم جيداً أنه لا خير في أمة لم تحفظ تراثها ، وأن أى تقدم في المجالات الإنسانية لابد

---

(1) انظر : التحرير والتنوير / ج1 / 39.
(2) انظر : التحرير والتنوير / ج1 / 40 ، 41.
(3) انظر : أحمد بن حنبل / المسند / كتاب باقي مسند الأنصار ج 6/ 91 (من حديث السيدة عائشة) حديث رقم 24774.
(4) انظر : الموطأ /ج 2 /709 /كتاب حسن الخلق /رقم 47 /باب 1 /ما جاء في حسن الخلق ، وكذلك : مسند الإمام أحمد بن حنبل /ج 2 /381 /حديث رقم 8940، ولفظة : (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق).
(5) انظر : التحرير والتنوير / ج1 / 46.

وأن يكون على أساس فهم واع للموروثات الحضارية للأجداد ، والشيخ ابن عاشور يسير في منهجه العقلى على هذا النحو ، فهو يعترف بفضل الأقدمين فى شتى مناحى المعرفة العربية ، ويستلهم آراءهم قبولاً مرة ، ومناقشتها مرة أخرى إن كان فيها تعارض مذهبى أو غيره أو تضارب مع حقائق علمية كشفت عنها الدراسات الحديثة.

وقد عبَّر الشيخ عن اهتمامه بتراث العلماء العرب القدماء من مفسرين ولغويين وغيرهم ، بقوله :"ولقد رأيت الناس حول كلام الأقدمين أحد رجلين: رجل معتكف فيما شاده الأقدمون ، وآخر أخذ بمعوله في هدم ما مضت عليه القرون ، وفي كلتا الحالتين ضَرٌّ كبير ، وهنالك حالة أخرى ينجبر بها الجَناح الكسير ، وهي أنْ نعمد إلى ما أشاده الأقدمون فنهذبه ونزيده ، وحاشا أنْ ننقصه أو نبيده ، عالماً بأن غمض فضلهم كفران للنعمة ، وجحد مزايا سلفها ليس من حميد خِصال الأمة."[1]

وفي رأينا أنَّ الذي يعتد بالقديم من التراث ويهذبه ويزيده بمعارفه التي اكتسبها من التقدم العلمى الحديث يستطيع أنْ يكتسب ثقة الأمة بأسرها ؛ لأنه حفظ كيانها من الضياع والهلاك ، وأسهم بعقله المتفتح المستنير في تقريب علومها وتراثها للمحدثين، ومن ثم يستطيع أنْ يعتلى أعلى المنابر ويُدلى بآراء ثاقبة في البحوث والدراسات ، وهذا ما حدث مع الشيخ ابن عاشور ، فقد وصل بفضل عقليته وبصيرته إلى اكتساب ثقة الأمة الإسلامية جميعها ،وخاصة القطر التونسي ، حيث مكنه تبحره في العلم إلى أنْ حصل على أرقى المناصب ، وكان أول مفتٍ مالكى في تونس.[2]

وقد ساعد الإمام ابن عاشور على أنْ يسير في هذا الطريق ، وهو الاعتداد بالقديم وتهذيبه ما عُرف عنه بأنه كان يمتاز بسعة حفظه ، وكثرة اطلاعه ، ودرسه في أمهات الكتب القديمة ، وهضمه للحواشى والمتون في شتى مناحى اللغة العربية وآدابها ، فضلاً عن القرآن وما يتصل به من علوم ، وقد حكى الشيخ الأستاذ محمود شمّام في كتابه "أعلام من الزيتونة" جانباً من ذلك فقال :"ومرت الأيام واجتمعت إليه عشية بقصره العامر دوماً - إن شاء الله - وكان ذلك قبيل وفاته - رحمه الله - بأشهر قليلة ، وكنت مصاحباً للمولى الخال خطيب عصره الشيخ سيدى على بن الخواجة[3] –رحمه الله- واستقبلنا الشيخ الإمام بحفاوة بالغة وترحاب كبير وتحدثنا إليه في شأن من شؤوننا ثم أحببت أنْ استمع إلى شيء من حلاوة بيانه ، وأن استفيد من عمق تفكيره ، وسعة اطلاعه ، فأثرت بعض التوقفات والمشاكل المطروحة في طريق بعض القوانين الوضعية ، وإذ كنت أعرف سعة أفقه وبعد نظره فقد كنت على يقين من وجود الحل المناسب لما أعرضه عليه وأبسطه لديه ، وأن ألقَى عنده الرأى المدعم بالسند وهو الحافظ الحجة.

فأفاض – رحمه الله- وأفاد وأجاد ولم أشعر بأن الأيام والمحن غيّرت من ذاكرته وحافظته شيئاً ، وتحققت من سر قوته وعبقريته ونبوغه. فقد كانت ذاكرته القوية النادرة تسعفه وتمده بما كان حفظه وطالعه وركز عليه وكانت تُعبدَ أمامه الطرق ليبدى رأيه معللاً مقنعاً.

وجامله الشيخ الخوجى بأبيات نسبها إلى أحد العلماء فعلَّق الأستاذ الإمام على ذلك

---

(1) انظر : التحرير والتنوير / ج1(التمهيد) / 7.

(2) عُيّن في 23 من محرم سنة 1351 هـ الموافق 28 من مايو سنة 1932م.

(3) هو أبو الحسن الحاج على بن الخواجة ، إمام وخطيب جامع صاحب الطابع ، ومفتى الديار التونسية ، توفى في فجر يوم الجمعة الثامن من جمادى الآخر سنة 1402هـ الموافق 2 أبريل سنة 1982م (راجع:أعلام من الزيتونة / 148 ،171).

بقولـه :"إنَّ هذه الأبيات لها قصة وتلا نصها كاملاً من حفظه وأضاف أنها موجودة مع قصتها في كتاب "أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض[1]" عند الحديث على ترجمة الإمام المازرى وذكر القصة وأعاد تلاوة الأبيات كأنه يطالعها من صحيفة مشورة أمامه.

وكما أدهشنا بسحر بيانه أدهشنا وهو في هذه السن العالية باحتفاظه بهذه الذاكرة القوية العجيبة.

وقلت له وأنا أشير إلى حديثنا الماضي : إن من نعم الله على عبده هدايته إلى خزن كل ما عرفه؛ حتى يناظر به كل مخالف مجادل بسلاح مُهنَّد غير مفلول.

فأجاب مبتسماً : نعم وإن من حفظ حجة على من لم يحفظ وكأنه يشير إلى أنه لم ينس مقولته السابقة ولم تمحها من ذاكرته الأعوام. ورجعت إلى كتاب أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض فوجدت بالصفحة عدد (177) من الجزء الثالث طبع القاهرة سنة 1361هـ-1942م حديث هذه القصة كما رواها الأستاذ الإمام."[2]

خلاصة القول إنَّ الإمام كان معتداً بالقديم ويسعى إلى تهذيبه في مؤلفاته ، ويمكننا تلخيص ذلك الجهد الفريد في النقاط التالية :

1- اعتماد آراء المفسرين القدماء في المسائل التي ليست موضع اجتهاد، والاستئناس باجتهاداتهم في المسائل التي اجتهدوا وأحسنوا فيها .

2- الرجوع أثناء تفسير الألفاظ القرآنية وبيان ما بها من نكت لغوية وبلاغية إلى مؤلفات العلماء القدامى.

3- الاهتمام بتوثيق النصوص ونسبتها لأصحابها.

ثالثاً : إعمال النظر والفكر واستخدام المنهج العلمى :

إنَّ للشيخ ابن عاشور منزلة عظيمة لدى الباحثين والعلماء المعاصرين وذلك لما له من آثار علمية خالدة تجعل العلماء يتهافتون عليها مسترشدين بها ، ومستفيدين من مسائلها ، وتخريجات صاحبها العظيمة ، وآرائه الثقافية . فكان – رحمه الله- علماً من أعلام الزيتونة ، ومؤسساً لنهضة تونس ومحرراً المجلات العلمية الثقافية بتونس وخارجها ، ومفسراً للقرآن الكريم ، وشارحاً للحديث النبوي الشريف .

وسوف نتحدث فيما يلي عن جانب إعمال النظر والفكر واستخدام المنهج العلمى في فكر الإمام ابن عاشور.

وقد وُجدت عدة عوامل – في رأينا- دفعت الشيخ إلى أنْ يكون له طابعه الخاص في هذا الأمر منها :

---

(1) هو أبو الفضل القاضى عياض بن موسى بن عياض ، العلاّمة اليحصبى السَّبتيُّ المالكى ، الحافظ ، أحد الأعلام ، ولد سنة 476هـ وتوفى سنة 544هـ ، وُلِىَ قضاء سَبتة مدة ، ثم قضاء غرناطة ، وصنف التصانيف البديعة ، منها : الشفاء ، ومشارق الأنوار في غريب الصحيحين ، والموطأ ...وغيرها.[انظر : ابن العماد /شذرات الذهب /ج 6 /226 ، 227].

(2) انظر : محمود شمّام / أعلام من الزيتونة / ص132 ، 133 / ط.الشركة التونسية لفنون الرسم / تونس / 1417هـ 1996م.

(1) أنه "كان معتدا بنفسه في إبداء الرأي واقتناص الحل للمشاكل الطارئة والقضايا النازلة"[1] على نحو ما وجدناه في معركة التجنيس التي خاضها مع الفرنسيين.

(2) أنه "كان جريئاً ينقد آراء السابقين ،ويؤاخذ المفسرين وشُرَّاح الحديث ، وينعتهم أحيانا بالتقصير والقصور وحتى الإهمال وتجاوز الحوادث والقصور عن إدراك كنه الحقائق."[2] وجرأة الإمام دائماً تكون عن فهم واع للمسائل التي يتعرض لها ، وطول بحث ودراسة وتحقيق ، فلا يُخطِّئ غيره بلا دليل أو حجة ، وإن جانبها الصواب في رأى البعض فهي – في نظري- من باب من اجتهد وأخطأ.[3]

(3) أنَّ الإمام ابن عاشور كان "عالماً مطلعاً حافظاً متمكناً من وسائل الفهم والاستنباط والاستنتاج والاستخراج ، يملك ثقافة علمية كاملة شاملة وأدوات عامة جامعة يستعملها بين أيدى أبحاثه وتخريجاته وتفسيره ، فيضع القواعد المسلَمة التي لا نزاع فيها ، يمهد بها لطرح الإشكاليات والتوقعات ، ويُقدِم المقدمات واحدة بعد أخرى حتى يصل إلى الاستنتاج والرأى الذي ارتآه وأقره وأحكم ربط أواصره ، والذي تقبله النفوس عن رضا وطواعية ، فإذا الذي له معه خلاف خاضع للأمر مستجيب للحل موافق عليه ، بل مسحور بقوة الحجة وصلابة ومتانة الأسلوب الإقناعى ، وإنْ تفاوتَ هذا الأسلوب في البسط والإقناع بين الشدة والليونة والصلابة واللطف."[4]

(4) أنَّ الشيخ ابن عاشور " لا يركن إلى المراوغة والمغالطة والاسترواح والتهرب، بل يصدع بالقول ، ويجهر بالرأى ، ويأخذ المخالف ولا يستحى من كشف عيوبه ونقائصه وإبداء هفواته وغلطاته."[5]

تلك هي العوامل التي وجهت الإمام ابن عاشور إلى إعمال الرأى والنظر والفكر في مؤلفاته عامة وتفسيره التحرير والتنوير خاصة، الأمر الذي جعل دراسة المنهج العقلى لديه من الثراء والأهمية بمكان ، وكانت له صولات وجولات في هذا المجال ، ولا يسعنا المجال لذكرها بالتفصيل.

على كل حال يمكننا رد إعمال النظر والفكر و استخدام المنهج العلمى عند الإمام ابن عاشور في اهتمامه بالنواحي التالية:

1- تمكنه من وسائل الفهم والاستنباط التي تُعين على توجيه النصوص.

2- تحقيق النصوص ونسبتها لأصحابها ومناقشتها إن دعت الضرورة.

3- عرض الآراء وتفنيدها واختيار أصوبها أو ذكر رأيه الخاص.

4- ربط التفسير بالمعطيات التاريخية وكتب الأديان السابقة والعلوم الكونية.

---

(1) انظر : محمود شمّام / أعلام من الزيتونة / ص240.

(2) انظر : نفسه / ص240.

(3) لقد وجدت رسالة علمية مخطوطة بجامعة الأزهر الشريف تعنى بهذا الأمر عنوانها "المآخذ البلاغية للشيخ الطاهر ابن عاشور في علمى البيان والبديع في تفسير التحرير والتنوير / عرض ، دراسة ، نقد" لنيل درجة الماجستير للباحث على عمارة محمد عمارة ، وعرض فيها الباحث للعديد من مآخذ الإمام على المفسرين والبلاغيين وناقشها وردَّ بعضها أحياناً.

(4) انظر : محمود شمّام / أعلام من الزيتونة / ص240 ، 241.

(5) انظر : نفسه / ص 241.

رابعاً : التركيز على فن دقائق البلاغة وبيان وجوه الإعجاز :

القرآن الكريم معجزة باقية على مر العصور ، فالبحث في بلاغته وبيان وجوه الإعجاز في أسلوبه ونظمه وجمال تركيبه ، بدأ على يد الجاحظ ، فيذكر الدكتور صبحى الصالح أنَّ الجاحظ هو أول من تكلم في هذا الموضوع ، وألَّف كتاباً لم يصل إلينا اسمه "نظم القرآن" تكلم فيه عن الإيجاز ، والحذف وبيان الزوائد والفضول ، والاستعارات ، وهناك إشارات لهذا الكتاب في كتاب الحيوان [1]

ويرجع الفضل للمعتزلة في ظهور نظرية إعجاز القرآن ، فجعلها الجاحظ في الإيجاز ، والواسطى في النظم ، والرُّمانى في البديع ، وأصبحت مسائل البلاغة إحدى آلات الكشف عن نظرية إعجاز القرآن ، فأصبح بيان الوجه البلاغي المعجز من كل تركيب قرآنى هدفاً يسعى إليه المفسرون[2] ، وعمدتهم في ذلك الإمام الزمخشري الذى نرى أثره واضحاً في تفسير التحرير والتنوير.

و الشيخ ابن عاشور يرى أنَّ "ملاك وجوه الإعجاز راجع إلى ثلاث جهات : الجهة الأولى : بلوغ الغاية القصوى مما يمكن أنْ يبلغه الكلام العربي البليغ من حصول كيفيات في نظمه مفيدة معانى دقيقة ونكتاً من أغراض الخاصة من بلغاء العرب ، مما لا يفيده أصل وضع اللغة ، بحيث يكثر فيه ذلك كثرة لا يدانيها شيء من كلام البلغاء من شعرائهم وخطبائهم.

الجهة الثانية : ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف في نظم الكلام مما لم يكن معهوداً في أساليب العرب ، ولكنه غير خارج عما تسمح به اللغة.

الجهة الثالثة : ما أُودِع فيه من المعانى الحِكمية والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية مما لم تبلغ إليه عقول البشر في عصر نزول القرآن ، وفي عصور بعده متفاوته ، وهذه الجهة أغفلها المتكلمون في إعجاز القرآن من علمائنا مثل: أبى بكر الباقلانى والقاضى عياض."[3]

ويرى الإمام ابن عاشور أنَّ "معانى القرآن ومقاصده ذات أفانين كثيرة بعيدة المدى مترامية الأطراف موزَّعة على آياته ، فالأحكام مبينة في آيات الأحكام ، والآداب في آياتها ، والقصص في مواقعها ، وربما اشتملت الآية على فنين من ذلك أو أكثر . وقد نحا كثير من المفسرين بعض تلك الأفنان."[4]

غير أنَّ شيخنا وجد قصوراً من المفسرين في معالجة قضايا البلاغة أو كما قلنا –آنفاً- فن دقائق البلاغة ؛ لذا أخذ على عاتقه أنْ يضع لنا هذا السفر العظيم في التفسير ؛ ليسد الفراغ في مثل هذه الدراسات وقد صرَّح عن رغبته في ذلك بقوله :"ولكن فنَّاً من فنون القرآن لا تخلو عن دقائقه ، ونكته آية من آيات القرآن ، وهو فن دقائق البلاغة هو الذي لم يخصه أحد من المفسرين بكتاب كما خصُّوا الأفانين الأخرى ، من أجل ذلك التزمت أنْ لا أغفل التنبيه على ما يلوح لى من هذا الفن العظيم في آية من آي القرآن كلما ألهمته بحسب مبلغ الفهم وطاقة التدبر."[5]

---

(1) راجع :د.صبحى الصالح / مباحث في علوم القرآن / 313 /ط.دار العلم للملايين /بيروت /1968م.
(2) راجع : الفاضل بن عاشور / التفسير ورجاله / 73 ، 75.
(3) انظر : التحرير والتنوير / ج1 / 104.
(4) انظر : التحرير والتنوير / ج1 / 8.
(5) انظر : التحرير والتنوير / ج1 / 8.

ومن ثمَّ وضع الشيخ البلاغة القرآنية هدفاً أساسياً يسعى في تفسيره إلى تحقيقه وإثباته في كل آية يتعرض لها ، وذكر ذلك قائلاً :"وقد اهتممت في تفسيري هذا بيان وجوه الإعجاز ونكت البلاغة العربية وأساليب الاستعمال"[1] وقد التزم الشيخ هذا المنهج من أول تفسيره حتى نهايته ، في أسلوب سهل ميسر ، ومقدمات بديعة ، وتذوق جميل لفنون البلاغة وكيف لا وهو قد هضم كتب السابقين في جميع فنون القول مما أكسبه الخبرة والدراية والفصاحة والحجة وهي أهم ما يلزم البليغ الذي يتصدى لمثل هذا الأمر.

خامساً : التوفيق بين القرآن والعلم الحديث والرد على المضللين :

لقد ذكر القرآن حقائق علمية لم تكن معروفة زمن نزوله ، وقد اكتشفها العلم الحديث ، واتفق مع ما ذكره القرآن بشأنها ، لذا وجدنا جيلاً من المفسرين يتخذ من المكتشفات العلمية الحديثة طريقاً لتفسير بعض الآيات القرآنية ، رابطاً بين القرآن والعلم الحديث ، مستدلاً بذلك على الإعجاز العلمى للقرآن الكريم.

والطاهر ابن عاشور يذكر أنّ "طرائق المفسرين للقرآن ثلاث ، إما الاقتصار على الظاهر من المعنى الأصلى للتركيب مع بيانه وإيضاحه وهذا هو الأصل، وإما استنباط معان من وراء الظاهر تقتضيها دلالة اللفظ أو المقام ولا يجافيها الاستعمال ولا مقصد القرآن ... وإما أنْ يجلب المسائل ويبسطها لمناسبة بينها وبين المعنى ، أو لأن زيادة فهم المعنى متوقفة عليها ، أو للتوفيق بين المعنى القرآنى وبين بعض العلوم مما له تعلُّق بمقصد من مقاصد التشريع لزيادة تنبيه إليه ، أو لرد مطاعن من يزعم أنه ينافيه لا على أنها مما هو مراد الله من تلك الآية بل لقصد التوسع"[2]

ومن ثمَّ نجده يذكر أنَّه قد "تُجلب مسائل علمية من علوم لها مناسبة بمقصد الآية : إما على أنَّ بعضها يومئ إليه معنى الآية ولو بتلويح ما ، كما يفسر أحد قوله تعالى: { **وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً**} [البقرة:269] فيذكر تقسيم علوم الحكمة ومنافعها مُدخلاً ذلك تحت قوله "خيراً كثيراً" ...وكذلك أنْ تأخذ من قوله تعالى: {**كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ**} [الحشر:7]تفاصيل من علم الاقتصاد السياسى وتوزيع الثروة العامة ، وتُعلل بذلك مشروعية الزكاة والمواريث والمعاملات المركبة من رأس مال وعمل على أنَّ ذلك تومئ إليه الآية إيماءً .. ، وإما على وجه التوفيق بين المعنى القرآنى وبين المسائل الصحيحة من العلم حيث يمكن الجمع . وإما على وجه الاسترواح من الآية كما يؤخذ من قوله تعالى: {**وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ**} [الكهف:47] أنَّ فناء العالم يكون بالزلازل."[3]

وعلى ذلك فإنَّ ابن عاشور يرى ضرورة التوفيق بين القرآن والعلم ، لذلك اشتد في الرد على الشاطبي الذي يرفض اشتمال القرآن على العلوم التي لم تكن معهودة لدى العرب زمن

(1) انظر : التحرير والتنوير / ج1 / 8.
(2) انظر : التحرير والتنوير / ج1 / 42.
(3) انظر : التحرير والتنوير / ج1 / 42، 43.

نزوله.[1] ويعتبر ابن عاشور الأساس الذي بنى عليه الشاطبي نظريته أساساً واهياً ، ورده من وجوه ستة هي :"الأول أنَّ ما بناه عليه يقتضى أنَّ القرآن لم يقصد منه انتقال العرب من حال إلى حال ... قال تعالى: {**تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا**} [هود:49] .

الثانى : أنَّ مقاصد القرآن راجعة إلى عموم الدعوة وهي معجزة باقية فلابد أنْ يكون فيه ما يَصْلُح لأن تتناوله أفهام مَنْ يأتى من الناس في عصور انتشار العلوم في الامة . الثالث : أنَّ السلف قالوا : أنَّ القرآن لا تنقضى عجائبه يعنون معانيه ولو كان كما قال الشاطبي : لانقضت عجائبه بانحصار أنواع معانيه . الرابع : أنَّ من تمام إعجازه أنْ يتضمن من المعانى مع إيجاز لفظه ما لم تفِد به الأسفار المتكاثرة . الخامس : أنَّ مقدار أفهام المخاطبين به ابتداء لا يقضى إلا أنْ يكون المعنى الأصلى مفهوماً لديهم ، فأما مازاد على المعانى الأساسية فقد يتهيأ لفهمه أقوام ، وتحجب عنه أقوام ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه. السادس: أنَّ عدم تكلم السلف عليها إن كان فيما ليس راجعاً إلى مقاصده فنحن نساعد عليه ، وإن كان فيما يرجع إليها فلا نسلم وقوفهم فيها عند ظواهر الآيات ، بل قد بينوا وفصَّلوا وفرعوا في علوم عنوا بها ، ولا يمنعنا ذلك أنْ نقفِّى على آثارهم في علوم أخرى راجعة لخدمة المقاصد القرآنية أو لبيان سعة العلوم الإسلامية ، أما وراء ذلك فإن كان ذكره لإيضاح المعنى فذلك تابع للتفسير أيضاً . لأن العلوم العقلية إنما تبحث عن أحوال الأشياء على ما هي عليه ، وإن كان فيما زاد على ذلك فذلك ليس من التفسير لكنه تكملة للمباحث العلمية واستطراد في العلم لمناسبة التفسير ليكون متعاطى التفسير أوسع قريحة في العلوم"[2]

مما سبق يتضح لنا أنَّ ابن عاشور يميل إلى التوفيق بين القرآن الكريم والعلوم الحديثة ، ويدعم تفسيره للقرآن بالحديث عن العلوم ؛ ليحقق من وراء ذلك هدفاً عظيما يتمثل في الكشف عن الإعجاز العلمى لآيات القرآن.

على كلٍّ فإنَّ ابن عاشور قد جعل علاقة القرآن بالعلوم على أربع مراتب هي : "الأولى : علوم تضمنها القرآن كأخبار الأنبياء والأمم ، وتهذيب الأخلاق والفقه والتشريع والاعتقاد والأصول والعربية والبلاغة.

الثانية : علوم تزيد المفسر حكمة وهيئة وخواص المخلوقات.

الثالثة : علوم أشار إليها أو جاءت مؤيدة له كعلم طبقات الأرض والطب والمنطق.

الرابعة : علوم لا علاقة لها به إما لبطلانها كالزجر[3] والعيافة[4] والميثولوجيا[1] ، وإما لأنها

---

(1) راجع في ذلك : أبو إسحاق الشاطبي / الموافقات / ج2 / 61وما بعدها / ط. دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان.

(2) انظر : التحرير والتنوير / ج1 / 44 ، 45.

(3) علم الطيرة والزجر : عكس علم الفأل إذ المطلوب في الفأل طلب الإقدام على الأمر وفي الزجر طلب الهرب عن الأمر وهو تشاؤم الإنسان بشيء يرد المناظر والمسامع مما تنفر منه النفس ... مثلاً إذا أراد العرب سفراً يطيرون طيراً فإذا طار عن اليمين يتوجهون إلى المقصد وإن طار عن اليسار يرجعون عن السفر. (انظر : أحمد مصطفى الشهير بـ بطاش كبرى زاده /مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم /ط.دار الكتب العلمية /بيروت /لبنان/ ج1 /338 ، 339.

(4) العيافة : علم قيافة الأثر : وهو علم يبحث عن تتبع آثار الأقدام والأخفاف والحوافر في الطريق القابلة للأثر (انظر : مفتاح السعادة / ج1 / 328 ،129).

لا تعين على خدمته كعلم العروض والقوافى."[2]

ومن أبرز المسائل العلمية التي تعرَّض لها ابن عاشور في تفسيره : نظرية تسلسل أنواع الحيوان لدارون ، أبطلها بقوله:"فأما آدم فهو أبو البشر باتفاق الأمم كلها إلا شذوذاً من أصحاب النزعات الإلحادية الذين ظهروا في أوربا واخترعوا نظرية تسلسل أنواع الحيوان بعضها من بعض وهى نظرية فائلة."[3]

سادساً : مواكبة التفسير لروح العصر :

إن نظرة ابن عاشور لعموم القرآن وشموله لجميع الخلق وأفعالهم في شتى العصور ، وسعة ثقافته وعدم تقيده بالمأثور فقط ، كل ذلك أملى على الشيخ أنْ يأتى تفسيره مسايراً لروح العصر ، ومواكباً للتغيرات الحياتية المختلفة التي طرأت على الساحة الإسلامية .

فيهتم الشيخ بمعالجة المشاكل والقضايا التي تعن له ، في ضوء الفهم الصحيح ، والإدراك السليم ، والنقل الثابت ، والقياس المستقيم .

وليس أدل على مواكبة تفسيره لروح العصر من معالجته لقضية "لبس البروكة أو الشعر المستعار" حيث فحص الشيخ الموضوع من جوانبه المتعددة ونظر إلى المشكلة في ضوء الأحداث والمستجدات وأسباب النزول ، مدافعاً عن حقوق المرأة ، وعن حرية تمتعها بكل نعم الله عليها ، لأن هذه الأمور – في رأيه- يقصد بها الآن الزينة لا تغيير خلق الله ولا تبديله"[4]

و-أيضاً- تفسيره لآية التعدد في سورة النساء {**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً**} [النساء:3]

حيث قضى الشيخ بأن التعدد قد أباحه الإسلام ولم يجعله واجباً ، وقد خَلُصَ من بحثه هذا إلى أنَّ (الأصل في السعادة الزوجية والحياة البيتية هو أنْ يكون للرجل زوجة واحدة وهي غاية الارتقاء البشرى والكمال الذي ينبغى أنْ يربى الناس عليه ، ويقتنعوا به).[5]

ومهما يكن من أمر فإنَّ تفسير الشيخ ابن عاشور جاء مواكباً لروح العصر ، حيث عالج المسائل موضع الاجتهاد وإعمال الرأى ، بطريقة عصرية تتفق مع العصر الحديث ومتطلباته.

سابعاً : التوسع في ذكر الفوائد:

لقد توسع الشيخ ابن عاشور في تفسيره بطريقة تلفت نظر المتفحص لتفسيره ، حيث نجده يتطرق إلى موضوعات جانبية متعددة أثناء تفسيره لآى القرآن الكريم ، وهذا إنْ دلَّ فإنما

---

(1) الميثولوجيا : هو علم الأساطير ، وتطلق كذلك على مجموعة من الأساطير صدرت عن أمة متجانسة أو إقليم عرف بثقافة متجانسة.[انظر : الموسوعة العربية الميسرة /بإشراف محمد شفيق غبريال /المجلد الثانى /ص1797 /ط.دار الجيل /1416هـ - 1995م].

(2) انظر : التحرير والتنوير / ج1 / 45.

(3) انظر : التحرير والتنوير / ج3 / 229.

(4) راجع في ذلك : تفسير الشيخ للآيات 117 إلى 121 من سورة النساء / ج5 / 203 : 206 / وكتاب مقاصد الشريعة الإسلامية / ص 95 وما بعدها /ط.الشركة التونسية للتوزيع.

(5) راجع في ذلك تفسير الشيخ ابن عاشور للآية 3 من سورة النساء / ج4 / 222 :229 .

يدل على ثقافته الواسعة في شتى ميادين المعرفة ، وهو يعمد إلى ذلك في تفسيره ، لإثراء القارئ بالثقافة الإسلامية العظيمة ، حتى غدا تفسيره موسوعة علمية فريدة ، يجد الباحث فيه اللغة ، والبلاغة ، ومسائل الكلام ، والفقه ، والمستحدثات العصرية ، وفيه تتمات فوائد برع الشيخ في إيرادها في موضوعها.

ومن أمثلة الفوائد التي توسع ابن عاشور في إيرادها أثناء التفسير حديثه عن مرض البرص ، وتشخيصه ، وأسبابه وحالاته ، وعلاجه .[1] ، وحديثه عن أسماء سيدنا آدم[2] ، وحديثه عن عسل النحل وفوائده [3] . وحديثه عن البروج والكواكب والأجرام السماوية[4] وكيف يحدث النوم ؟ [5] . وذكره تخطيطاً توضيحياً للأمراض النفسانية الناشئة عن النفاق وما يتولد منها وتزايدها.[6]

تلك هي الأسس السبعة التي بنى الشيخ ابن عاشور عليها منهجه العقلي وطريقته في التفسير ، وقد برز أثرها واضحاً في تفسيره التحرير والتنوير ، الذى صدر فيه عن وعى تام لكل ما يوافق النص القرآنى وفهمه من ناحية العقل ، إذا لم يكن هناك نصٌ مأثورٌ يحول بينه وبين الاجتهاد برأيه.

الخاتـــمـــة

(1) راجع : التحرير والتنوير / ج3 / 251.
(2) راجع : التحرير والتنوير / ج1 / 408.
(3) راجع : التحرير والتنوير / ج14 / 209.
(4) راجع : التحرير والتنوير / ج14 / 28 : 34.
(5) راجع : التحرير والتنوير / ج3 / 19.
(6) راجع : التحرير والتنوير / ج1 / 280 وما بعدها.

وبعد ،،،

فقد وصل البحث إلى منتهاه ، وغايته المرجوة، وخرجت من كتابته بعدة نتائج منها :

1- أنَّ الشيخ ابن عاشور من المفسرين المحدثين الذين كان لهم باع طويل في هذا الفن، جمع في تفسيره بين المأثور والمعقول ، فغدا تفسيره موسوعة علمية عظيمة ألفه في ثلاثين عاماً، كان يهدف – من خلاله – إلى إبداء نكت لم يسبقه إليها غيره من المفسرين .

2- عُرف الشيخ ابن عاشور بشخصيته العلمية المستقلة، التي تبدو في تتبعه للآراء وجرأته في نقدها، ومؤاخذة المفسرين والشرَّاح .

3- بنى الشيخ ابن عاشور تفسيره العقلي للقرآن الكريم على سبعة أسس هي :

أولاً : عموم القرآن وشموله .

ثانياً : الاعتداد بالقديم وتهذيبه .

ثالثاً : إعمال النظر والفكر واستخدام المنهج العلمي .

رابعاً : التركيز على فن دقائق البلاغة وبيان وجوه الإعجاز.

خامساً : التوفيق بين القرآن والعلم الحديث والرد على المضللين .

سادساً : مواكبة التفسير لروح العصر .

سابعاً : التوسع في ذكر الفوائد .

هذا وتوصي الدراسة المؤسسات البحثية المتنوعة والأفراد بضرورة تقديم دراسات وافية لفكر الشيخ ابن عاشور في شتى فروع العلوم الإسلامية ، وخاصة موسوعته العلمية " تفسير التحرير والتنوير " ؛وصولاً لنشر أفكاره القيّمة واجتهاداته الإصلاحية التي حواها هذا السفر العظيم في جميع الفنون الإسلامية .

وأخيراً أبتهل إلى الله العظيم أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم .وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المصادر والمراجع

- أبو إسحاق الشاطبي / الموافقات / ج2 / ط. دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان.
- أحمد مصطفى الشهير بـ بطاش كبرى زاده /مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم /ط. دار الكتب العلمية /بيروت /لبنان
- الحبيب شيبوب/ نشرة وزارة الثقافة بتونس / خاصة بالشيخ في وفاته إعداد الحبيب شيبوب
- د. صبحى الصالح / مباحث في علوم القرآن / ط. دار العلم للملايين /بيروت /1968م.
- الزركلي / الأعلام / ج6 / ط. الثامنة / دار العلم للملايين / (بيروت / 1989).
- الشيخ ابن عاشور(محمد الطاهر ت 1973م) / تفسير التحرير والتنوير / 15مجلد / ط . دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس .
-الشيخ ابن عاشور / أليس الصبح بقريب / ط. المصرف التونسى-تونس-1967م.
- الشيخ ابن عاشور / مقاصد الشريعة الإسلامية / ط. الشركة التونسية للتوزيع.
- على محمد العطار /الاستعارة التمثيلية في تفسير التحرير والتنوير / رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية اللغة العربية بالقاهرة - جامعة الأزهر .
- على عمارة محمد عمارة / المآخذ البلاغية للشيخ الطاهر ابن عاشور في علمي البيان والبديع في تفسير التحرير والتنوير عرض ، دراسة ، نقد" رسالة ماجستير مخطوطة بكلية اللغة العربية بالقاهرة - جامعة الأزهر .
- محمد الفاضل بن عاشور / التفسير ورجاله / ط. مجمع البحوث الإسلامية – القاهرة 1970م .
- د. محمد رجب البيومي / مجلة الأزهر / عدد رجب 1421هـ أكتوبر2000م/ ج7 / 1037.
- محمد شفيق غبريال /الموسوعة العربية الميسرة /بإشراف محمد شفيق غبريال /المجلد الثانى /ط. دار الجيل /1416هـ - 1995م].
- محمود شمّام / أعلام من الزيتونة / ط. تونس 1417هـ 1996م.
- العلامة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وإسهامه في تجديد الفكر الديني "سلسلة آفاق إسلامية" رقم (9) / عن وزارة الشئون الدينية بتونس.